الأدب والآلة

تأثير الادب في عصر الآلة
وتأثير الآلات في أساليب الادب

بين الادب والآلة صلة قديمة ترتدّ الى اختراع المطبعة في القرن الخامس عشر. كان الادب قبل ذلك التاريخ مقتصراً على جماعات يسيرة من الناس. فكلام الخطيب كان لا يسمع الاّ في دائرة ضيقة حول خشبة المنبر. وكان في مستطاع الشاعر او المؤرخ او العالم أن يؤلف كتباً ولكن نفقة نسخها كانت كبيرة فحالت دون ذيوعها. حتى المؤلف المسرحيّ، وهو اديب يجمع بين القرّاء والسمّاع، كان لا يفوز الاّ بجمهور يسير من الفريقين اذا قيس بمسرحيّي اليوم

الاّ اننا في القرن العشرين عدنا لا نحسب المطبعة آخر المخترعات التي لها صلة وثيقة بالادب من حيث توسيعها لنطاقه. لان هنالك وسائل اخرى استحدثها العلم. فاذا كتب برنارد شو كتاباً الى محرّر صحيفة كبيرة في لندن، ينطوي على رأي ألمعي أو نقد لاذع، نقلت كتابته كلمة كلمة بالبرق الى نيويورك فتنشر في سلسلة متصلة الحلقات من صحفها يطالعها الوف الالوف. فالبرق يوسع نطاق الادب. والاذاعة اللاسلكية تكمل هذا العمل. ولو انه كان في الامكان اقناع برنارد شو مثلاً ان يقف خطيباً في لندن امام مذياع لامكن ان يسمعه جمهور من الاميركيين والانكليز لا يقلّ عدده عن مائة مليون

كان على سقراط ان يكتفي بطائفة يسيرة تحاوره وبحاورهم في اجورا، وعلى قيقرون ان يقنع بقلّة من شيوخ روما في مجلس شيوخها. ولكن المحاورات اللاسلكية تدور الآن بين ادباء يقيمون في مدن متباعدة، وخطباء الامم من أمثال روزفلت وهتلر وموسوليني وبولدوين يخطبون فيصغي اليهم العالم قاطبة. ولو عاش سقراط، أو قيقرون الف سنة، لما سمعهما في خلالها عدد من الناس، يقارب من يسمع شو أو هتلر أو روزفلت في ساعة واحدة

لكنّا نعلم بأن عدد الجمهور المستمع للخطيب لا يعلي من شأن الجمهور. وان الجمهور المستمع مثقفاً كان أو غير مثقف، كبيراً او صغيراً، لا يجعل من كلام الأديب او الخطيب فنّاً. ولكن

الأدب في عصر الآلة لا يمكن ان يبحث على أوفى وجه الا من حيث ارتباطه بالآلات التي خلقت للأدب عملاً جديداً وأشكالاً مستحدثة. قد يكون من المستطاع اقامة الحجة، على ان هذه الوظائف. وهذه الاشكال دخيلة على الادب وانها لن تيسّر شيئاً من قواعد فن الابداع. فالشعر لا يزال شعراً، والدراما لا تزال دراما، والقصّ لا يزال قصّاً، والموضوعات الرئيسية التي يعالجها الادب لا تزال الموضوعات التي كان يعالجها من قرون وقرون. ولكن شأن الادب في الحضارة قد تغيّر منذ اخترعت المطبعة، ولا بدّ ان يمضي في تغيّره متأثراً بكل أداة جديدة يبدعها العلم ويلقيها على باب الكاتب، فتكون صلة جديدة بينه وبين القارىء.

وقد يقال ان الاذاعة اللاسلكية التي تنقل قول المذيع الى آذان السامع لا صلة لها بالادب، لان ما قيل لم يدوّن، وانما تبدّدت ذبذباته مع امواج الهواء والاثير. ولكن ليعد القارىء بالذاكرة الى العصور القديمة، عند ما كان الادب، ولا سيما الشعر ينقل بالرواية من جيل الى جيل ومن عصر الى عصر. ولنتصوّر مثلاً شاعراً كفرنسوى ڤيون المنشد الباريسي. فقد كان ڤيون يقرأ اناشيده لصحبه في خمّارة من الحمّارات، وكان يسمح لهم بان يدوّنوها اذا شاؤا. والمرجّح ان شيئاً منها لم يطبع الا بعد نفيه، او بعد وفاته. اي ان الجمهور الكبير الذي قرأ ڤيون قرأه بعد ما غدا من المتعذر عليه ان يعرفه. ولو ان شاعراً كڤيون وقف امام المذيع في هذا العصر، وقرأ اشعاره، فتذيعها الامواج السحرية على الوف الالوف، ثم تدوّن في اقراص الحاكي فيستعيدها كلّ من يأنس من نفسه رغبة في سماع صوته، لحكمنا بان للاذاعة واقراص الحاكي مكانة وأية مكانة، في نشر قصيدة من القصائد تطرب لها النفوس او تحرّك. قد يعزف الجمهور بعد شهر عن هذه القصيدة ليقبل على اخرى تليها من شاعر آخر، وقد تطوى هذه القصيدة او تلك بعد ستة في زوايا النسيان، ولكن ذلك لا يهمّ. لانّ الآلة تكون، قد اطالت من عمرها ووسعت من نطاق تأثيرها. وهو ما لم يكن ڤيون ولا غير ڤيون من شعراء العصور القديمة يطمع فيه. وكذلك يكون الادب قد أثر على وجه ما في عصر الآلة تأثيراً كان مستحيلاً على الادب قبل عصر الآلة.

بين قراءة ڤيون لاشعاره في خمّارة باريس، وقراءة ڤيون الموهوم لاشعاره امام المذيع تطور عظيم الشأن، ترتدّ اوسع خطواته الى المطبعة. والمطبعة تعني، تمكين الاديب من تعديد النسخ التي تنشر من كتابه. ولكن هذا التعديد افضى الى اشياء اخرى. ذلك ان ندرة الكتب لفداحة ثمنها كما كانت قبل عهد المطبعة، حتمت ان تكون في متناول قلّة من الناس اي ان قليلاً من الناس كان يأنس من نفسه باعثاً على العناية بتعلم القراءة ليقرأها. فلما كثرت النسخ، بطبعها بدلاً من نسخها، حرّكت في الجماهير العناية بها، كما تخلق بضاعة جديدة رغبة في شرائها

قد ... الكتب ... الطبع ... كثرت الكتب وما كاد القرن السابع عشر ينتهي حتى كانت كثرة من الآداب القديمة قد طبعت . وفي منتصف القرن الثامن عشر كان من النادر ان تجد بيتاً حضرياً بالمدن يخلو من بعض المؤلفات . فلما كان القرن التاسع عشر ، كانت الصحف قد بلغت شأواً من الطموح ، وصارت تنافس الأدب . وفي مطلع القرن العشرين ، كانت الصحافة قد أصبحت من المنشآت الكبيرة ، واتسع نطاق الأدب وتعددت فروعه ، حتى أصبح ما كان يعرف بالأدب في القرون السابقة جزيرة صغيرة في خيط فسيح من الكلمات المدونة والمطبوعة . وقد أخذ الناس في الثلث المنقضي من القرن العشرين ، إلى تبدّي الكلمات المطبوعة في الأدب إلى غيرها من الوسائل التي تؤثر في حواس غير حاسة النظر — فثمة الخطابة بواسطة المذياع . وثمة الصور المتحركة في الدرامة . وثمة الصفحات المصوّرة في الصحافة . وليس بالنادر ان تجد من ينبئ بأن الأدب قد أوشك ان ينهار ، وان الناس بفضل الوسائل الميكانيكية المستعملة في عرض آثار الفكر والفن ووقائع الحياة عليهم ، سيرجعون القهقرى الى عصر من الامية ، مضت عليهم قرون وهم يكافحون في سبيل الخروج من ظلماته

وليس يهمّنا هنا ما يقوله هؤلاء . وانما يهمّنا ان نبيّن تأثير الآلة في الأدب . ففي المقام الاول كان من تأثير الآلة في الأدب تقسيم العمل وتوفر كل فريق من الأدباء بوجه عام ، على فرع منه أو جزء من فرع ، حتى أصبحنا نرى في دولة الأدب كما نرى في دولة الاجتماع طبقات وطبقات . فثمة من يقول بأن الصحافة غير الأدب ، بل ان بين الاثنين نوعاً من المنافسة والصراع . والخطابة عادت لا تعدُّ من فنون الأدب وكذلك العلم وجانب كبير من المؤلفات التاريخية . وقد انزوت الدرامة في جانب من الميدان الذي كانت تحتلّه ، لتخلي المكان للصور المتحركة

فالأدب في عالم ، يكاد يكون فيه كل انسان قارئاً ، أصبح لا يطلق الاّ على نطاق محدود مما يكتب وفقاً لقواعد معيّنة لتقرأه طبقة خاصة من الناس بأساليب معيّنة . وليس هذا التحديد من قبيل التعنّت . ولكنهُ ينبع من حقيقة أساسية ، وهي أن جميع الوسائل التي تشجع الكتّاب على الكتابة ، وتعينهم على ذيوع أسمائهم ، لا تستطيع ان تزيد عدد الموهوبين الممتازين منهم . فظهور النابغين من الكتّاب لم يزد بابتداع هذه الوسائل . والأدب ، بهذا المعنى المحصور لا يزال نادراً . ولكن الطلب الكثير على كتب الادب افضى ولا ريب الى كثرة المتوسط منها او ما هو دون المتوسط

ولو أن المطابع حصرت عملها في طبع الآيات الادبية فقط ، لاجتنب جانب من هذه الشرور . ولكن دون عمل من هذا القبيل عقبات كبيرة . فالناشرون لا يدركون دائماً قيمة الآثار الادبية التي تعرض عليهم للنشر . وعلاوة على ذلك لجمهور القراء مطالب تغري بنشر كتب تؤدي اغراضاً خاصة لا يؤديها الادب بأعلى معانيه . فكتب الملخصات لحقائق العلوم والمعارف

العامة وكتب التسلية وما كان منها متصلاً بتعميم الانباء اليومية تكاد من الندرة امثالاً لا تقل للتأثير بتجاربه . وليست هذه الرغبة خاصة بعصر الآلة ، ولكن التأثير في عصر الآلة ، وجدت الوسائل الوافية لتلبيتها وادراكها . ان الاحاديث في العصور القديمة كان في الاندية يسائل بعضهم عن مرض اصاب قصته ويصغي الى قصة تروى حول نار القبيلة ويستطلع مسافراً ما حدث في قرية مجاورة منها ولكن الفلاح الاميركي او الانكليزي يقرأ الآن نشرات الحكومة الخاصة بوقاية القطعان من مرض وبائي ، ويطالع رواية ويقرأ جريدة ، فيشبع بعض الميول التي كان يشبعها الفلاح البابلي على طريقته البدائية — وليس من فرق بين الاثنين الا المطبعة

الا أن البحث في الادب يغري الباحثين عادة ، بصرف النظر عن كل ما كان دون الادب الصميم ، وحصره في الادب الذي تكتمل فيه قواعد الفن ويرجى له الخلود . ولكن بحثاً من هذا القبيل قلما يتسع اتساعاً وافياً تشمل جميع عناصر البحث . لان كلمة « لتراتور » وهي التي نترجمها عادة بلفظ الادب هي كل ما يكتب ليقرأ اي ان الادب باوسع معانيه وسيلة لتمكين الفكر الانساني من بلوغ مدى لا يبلغه اذا اكتفى الانسان بالنطق . ثم كيف السبيل الى التفريق الحاسم بين مؤلفات أدبية ، هي من الآيات الخالدة على الدهر ، والمؤلفات التي تروج مدة طويلة او قصيرة ثم يطويها النسيان . فرواية دون كيشوت كتبت لتكون صورة « كاريكاتورية » من روايات كانت رائجة في ذلك العصر . وقصة روبنصن كروزو كانت احد الكتب الكثيرة التي الفت في ذلك العهد في وصف الرحالين الضالين والمسافرين الذين تحطمت سفنهم على شواطىء جزائر نائية غير آهلة بالناس . وليس بين تلك الكتب الآن — اذا استثنينا روبنصن كروزو — ما يحفل به احد الا اصحاب غرض خاص في البحث . ولا يستطيع أحد من النقاد ان يقول ، ان سرفانتس مؤلف دون كيشوت وديفو مؤلف روبنصن كروزو ، اقبلا على كتابة مؤلفيهما وهما يقصدان خاصة ان يسما كتابيهما بسمة الفن والخلود . ولكنهما كانا كاتبين عبقريين ، تظهر كتابتهما على الكتب التي قلداها او التي جريا على غرارها . والراجح أنهما لم يدركا أنهما يقومان بعمل يعجز معاصروهما عن القيام به . فكان الحكم للزمن والزمن هو الغربال الأخير ، يغربل الكتب التي تؤلف ولا يستبقي الا النادر منها . الا ان الادب عمل متصل ولا يمكن ان يفهم الا بالمقابلة بين الكتب التي يكتب لها الخلود والكتب الأخرى التي لا يدوم نجاحها الا بين ليلة وضحاها من ليالي الزمن وضحاه

وليس أدلّ على تأثير المطبعة في المطبوعات من دراسة تأثيرها في القصة لأنَّ القصة في عصر الآلة ، هي أبرز الأساليب الكتابية وأوسعها انتشاراً وأكثرها رواجاً . فلولا المطبعة لما أدركت القصة على أبعد تقدير ما أدركته الآن من الذيوع . ومع ان القصة كأسلوب من أساليب الأدب اخترعت قبل عهد المطبعة ، الا أنها لو اعتمدت على جهد النساخ في اخراج نسخ متعددة

من قصة [illegible] القرن الثامن عشر مقدار التقدم الذي أدركته من طريق المطبعة . حتى بعد اختراع المطبعة [illegible] انقضت ثلاثة قرون قبل ان تبلغ القصة [illegible] دون الآخريات [illegible] [illegible] اساليب الادب [illegible] جميع الصفات التي تمكّن ان [illegible] تكون [illegible] فئة كبيرة من القراء ترغب في [illegible] والمجلة في [illegible] هذه الطبقة وآلمها . وقد جاء عهد كان للقصة خصوم كثيرون حسبوا [illegible] انها تسلية غير مفيدة ؛ وكان الرأي عندهم أن القراءة يجب أن تنحصر في ما يفيد . ولكنهم عجزوا عن هذا الحصر . لان المطبعة التي ربّت طبقة من الناس تقرأ للفائدة عجزت عن منعهم من القراءة للتسلية . وكذلك زاد الطلب على القصة فزاد المعروض منها . وكذلك تسنى للقصة في القرن التاسع عشر ان تبز جميع الاساليب الادبية في تقدمها وتطورها . بل انها في تقدمها ، اخذت على عاتقها ان تقوم في بعض أشكالها بعمل القصيدة القصصية ، لان النثر اسهل في القراءة من الشعر ، وسلبت الدوامة بعض مقامها لانه أسهل عليك ان تبحث في طلب كتاب من ناشر يبعد عنك الف ميل من ان تذهب عشرين ميلاً فقط لمشاهدة دوامة تمثل . وكذلك اصبحت القصة مدرسة للسلوك ، ومنبراً للمناقشة ، ومجلى للتاريخ ، ومسرحاً مصغراً للحياة . بما احكمت الصلة بين جمهور الناس والادب ، بل فاقت جميع أساليب الادب الاخرى في ذلك — انها في ميدان الادب نصر للآلة

اما الرواية المسرحية ، وهي اسلوب ادبي اقدم من القصة ، فقد خضعت كذلك لتأثير الآلة . فالمسرحيات الاغريقية واللاتينية ، وكذلك مسرحيات شكسبير وموليير ، كانت تخرج بالايدي ، علاوة على نسخها نسخاً . ولم يكتشف الانسان الوسائل الجديدة لاضاءة المسارح وتغيير المشاهد ورفع الستار وخفضه الا في القرن التاسع عشر ، فتحوّل هذا الجانب من المسرح الى عمل ميكانيكي محض او يكاد يكون كذلك . وقد أثر كل ذلك في نواحٍ ثانوية من أسلوب المسرحيات في الكتابة والاخراج ، ولكن المسرحيات لا تزال بوجه عام مسرحيات والمتقنون مثلين ، وبرنارد شو أقرب من هذا القبيل الى يوربيديس من تولستوي الى هوميروس . الا ان الجديد حقيقة في الادب المسرحي في عصر الآلة ، هو الصور المتحركة . فقيام الصورة الصوتية في الادب المسرحي كقيام المطبعة في ادب القصة وغيرها من المؤلفات . انها تمكن الناس من اخراج نسخ متعددة من مسرحية واحدة ممثلة . فالمسرحية عندما تمثل على مسرح لا يمكن ان تتعدى عدد النظارة الذين يشاهدونها في وقت ما . ولكن المسرحية التي تمثل وتصوّر في خلال تمثيلها ، على شريط منساب ، يمكن ان تصنع منه نسخاً متعددة فلا تمضي أسابيع على توزيع الشريط حتى يعرض في جميع انحاء العالم . واللغة لا تحول دون هذا الانتشار . قبل الصور المتحركة الناطقة كان يعتمد على ان التمثيل الصامت لغة عالمية . وبعد نشوء الصور المتحركة الناطقة اخترعت

أساليب التي كانت تستعين [illegible] فتبهر [illegible] التي يعرض بها الشريط ، [illegible] في السينما [illegible] أساليب الفن المسرحي [illegible] أساليب لا [illegible] من [illegible] كيف تستعين [illegible] من الفنون [illegible] المتعددة [illegible] في آن واحد [illegible] المخرج من ان يختار [illegible] على سطح الارض لتكون [illegible] ذلك على قمة جبل او في سفينة مجرة عباب اليم او داخل مصنع حديث او شيء ما طائرة محلقة في الجو او في شارع مدينة كبيرة او في صحراء قاحلة . ويصف [illegible] المشاهد كما يرسم بالريشة ثم يصور ذلك الرسم بالضوء ، ولكنها صور حقيقية حية في الغالب ، أو لا تكاد تفرق عنها في شيء . ثم ان مجال التمثيل أوسع مما يتسع له مسرح كبير في جو فسيح . ولما كانت صور المشاهد والممثلين تصور في معزل عن الناس ، فانها تخضع أمام المخرجين للنقد والاعادة والاجادة . وكذلك لا يعرض على الناس الا ما يبلغ مرتبة الاتقان التي يرتضيها المخرج ، وهي واحدة في جميع النسخ ، لا تتأثر كما قد يتأثر الممثلون على المسرح ، بأحوال الصحة والمرض ، والفرح والترح ، وقلة النظارة وكثرتهم

الا أن الصور المتحركة ترمي الى الفوز باستحسان اكبر عدد من الناس ، ولذلك يفضل القائمون بها ان تكون تحت مستوى الخاصة فكراً وقناً على ان تكون فوق مستوى الكثرة الساحقة . فقصصها في الغالب عادية لا ابداع فيها ، ومثلوها من طرزة محددة ومعروفة ، وموضوعاتها مبتذلة . ذلك ان الآلات تجيد التصوير ولا تجيد التفكير

وقد لا تكون الكتابة للصحافة من الاساليب الادبية الصميمة المعترف بها ، ولكنها على كل حال من الادب بأوسع معانيه . وهذه الكتابة قد تأثرت الى ابعد مدى بالآلات . فالرغبة في الاطلاع على الاخبار قديمة جداً ، ولكن مدى هذه الرغبة لم يعرف على حقيقته ، حتى ظهرت الصحف الحديثة ، وهي وليدة الآلات — من الآلات التي تصنع الورق ، في لفات كبيرة ، الى المطابع الدوارة ، الى منضدات الحروف ، الى وسائل العلم الحديث في نقل الانباء والصور على اختلافها . قد يختلف الباحثون في هل تصنع الانباء الجريدة او هل تصنع الجريدة الانباء . ولكن من المحتم ، انه على كثرة ما ينشر في الصحف من الانباء ، لا تحدث في العالم حوادث على جانب وافٍ من خطورة الشأن تكفي لملء جريدة من جرائد اميركا او اوربا الكبيرة . ولكن الآلات التي اخترعت واتقنت لجمع الاخبار وتنضيد حروفها وطبعها ، لا يمكن ان تبقى ساكنة ، واذن فلا بد من نشر كل ما يتيسر جمعه من الانباء بلغت ما بلغت من التفاهة . بل الواقع ان الصحف التي يقرؤها مئات الالوف بل الوف الالوف مضطرة الى نشر جميع الانباء الخطيرة والتافهة ، حتى يتيسر لكل قارىء من قرائها ان يجد فيها ما يهمه أو يتسلى به

وهذا ينشر بعض الصحف الكبيرة في [illegible] كان الصحف من كل عدد من الصحيفة ان يكون قارئه [illegible] فالآلة تكتب [illegible] المستعجل من الاطلاع على [illegible] بسرعة. فلولا الآلات لما وجدت الصحف الحديثة [illegible] الآلات [illegible] التي [illegible] صفحات هذه الصحف. ومع ذلك يسعنا أن نتوقع أن يكون لها أثر [illegible] القديمة، لا يرسم صورة [illegible] كالصورة التي ترسمها الصحف الاحدثية من جريدة [illegible] تيمس مثلاً لحياة الامة الاميركية

قد يعترض معترض على مباني هذا البحث بأننا عنينا بالأساليب الأدبية في العهد الاخير، من حيث تأثرها بالآلة ولكننا لم نقل شيئاً من تأثير الآلة في الادب، في القرون التي انقضت بين اختراع المطبعة واواسط القرن التاسع عشر. والرد على هذا الاعتراض، أن الطباعة لم تبلغ مقاماً عالياً في الحضارة الغربية، حتى ظهر ازدهار تكون طبقة كبيرة من القراء، اي انه كان لا بد ان تصبح المطالعة عادة لاغنى عنها كنتيجة الاحدثية قبل ان يظهر هذا الاثر. ولذلك ظلت المطبعة من الكماليات الى ان تم ذلك. وكانت النتيجة الاجتماعية، لتكوين هذه الطبقة، ان الاشاعات أصبحت تسرع حول الارض اسراع البرق، والانباء التي كانت تقضي شهوراً حتى تنتقل من بلد الى بلد بالرواية او بالبريد، غدت تذاع على ملايين القراء في جميع الاقطار كل يوم. ونشأ عن ذلك توسيع نطاق التأثير الناشىء عن انتقال الافكار وتحريك الشعور. ففي الامكان اليوم ان تثير قارة بأسرها، كما كان الخطيب يثير قرية صغيرة في العصور القديمة. بل في الامكان ان تصنع بطلاً بين ليلة وضحاها، وان تنظم حملة واسعة النطاق في اسبوع، وحرباً صليبية في شهر! ان الحضارة الغربية — بعد اختراع الراديو والصور المتحركة والصحافة الحديثة — أشبه ما يكون بمشاهد جالس في مسرح وفي حضنه كتاب تنقلب صفحاته صفحة صفحة من تلقاء نفسها

يكاد يستولي على الباحث، بعد كل هذا، شعور غريب، وهو ان سمة الادب في عصر الآلة هي التبديد. تبديد في الجهد وتبديد في الوقت وتبديد في المال. الوف من الكتب تكتب وتطبع ثم تطوى وتنسى. ومئات الخزائن على رفوفها الوف من مجلدات لم تفتح. والوف الالوف من الصفحات تخرجها مطابع الصحف والمجلات ثم تذروها الرياح. ان الآلة التي مكنت الصلة بين الجمهور والكتاب وعجلت ظهور المؤلفات الادبية وعددت نسخها، حشدت كذلك منها ما لا قبل لعقل بها فيقرأ ما يقرؤه منها ثم ينساها. صورة قاتمة! ولكن الانسان تعلم ان يسير في شوارع تعج بالمارة والمركبات مجتنباً جميع الاخطار، أفليس في وسعه اذا اصاب نصيباً من الثقافة الصحيحة، ان يجتنب كذلك الانطمار تحت سيل الادب المتدفق، فلا يقرأ منه الا الآيات المختارة؟ وبعد فليس ثمة ريب في ان بين آلاف الكتب التي تخرجها المطابع كل سنة بضع آيات . . . !

احد الانبياء